لمحة تاريخية : اليهودية المشوبة بالمسيحية وما فعله بها القديس بولس

Historical Reminder : Judeo-(*)

Christianity and Saint paul

يعتقد معظم المسيحيين أن الأناجيل Gospels إنما كتبها شهود عيان شاهدوا مباشرة حياة المسيح عليه السلام ، وبناء على ذلك تشكل شهادتهم المكتوبة وثائق لا تقبل الجدل أو المناقشة فيما يتعلق بشأن الأحداث المضيئة لحياة المسيح وتعاليمه .

وإن الإنسان ليتساءل : فى وجود مثل هذه الضمانة من ضمانات المصداقية المتمثلة فى شهادة شهود العيان ، كيف يتسنى للإنسان أن يرتاب فى صحة كل ما يصدر عن «الكنيسة» كمؤسسة تقدم للناس تعاليم المسيح وتاريخ حياته التى أعطاها للناس بنفسه وشهد بها شهود[١] عيان ؟ إن الطبعات المشهورة من الأناجيل تتضمن تعليقات وملاحظات تمهيدية فى مقدمة الأناجيل لترويج هذه الفكرة ونشرها بين الناس .

إن القائمين على شئون هذه الطبعات من الأناجيل يقدمون الأشخاص الذين ينسب إلى كل منهم تحرير وكتابة أحد الأناجيل باعتبار أنه شاهد عيان ويطلبون من الناس أن يأخذوا هذا الزعم مأخذ التسليم . وفى منتصف القرن الثانى الميلادى كان القديس جوستين Saint Justin يطلق على هذه الأناجيل تسمية هى :«مذكرات الرسل Memoirs of the Apostles" إن هذا الزعم قد أتيح له من الشيوع والترديد ما يجعل من المستحيل على أى شخص أن يرتاب فى مصداقية ومدى دقته ومطابقته للحقيقة ، إن القديس متّى Matthew كان شخصية معروفة باعتبار أنه كان موظفا بمكتب الجمارك أو ضرائب المرور بجهة كفر ناحوم بفلسطين[٢] ، ويقال : إنه كان يعرف ويجيد

---

* من المعروف أن المسيح – عليه السلام – قد ولد بين اليهود من بنى إسرائيل ، ومن المعروف أيضا أن المسيح لم يأت بشريعة جديدة مغايرة للشريعة الموسوية ، وكانت دعوة المسيح تتمثل فى إصلاح ما أفسده اليهود فحسب من الديانة اليهودية ، ومن ذلك يتضح لنا المقصود بتعبير «اليهودية المشوبة بالمسيحية Judeo-Christianity» أى الديانة اليهودية بعد إدخال تصويبات المسيح لما حرفه اليهود من الشرائع الموسوية . لم ينادِ المسيح بديانة جديدة بل كانت ديانة المسيح نفسه هى اليهودية بعد تصحيحها . (المترجم) .

(١) من الغريب أن من يطلقون عليهم تسمية شهود العيان Eye-Witnesses لم يشاهدوا ولم يروا الوقائع والأحداث الهامة التى شكلت حياة المسيح عليه السلام . عند محاولة جنود الرومان القبض عليه تركه الحواريون وهربوا كما تصرح بذلك نصوص الإنجيل. وعندما ظهر للحواريين بالحجرة العلوية بعد محاولة صلبه وأكل أمامهم خبزا وعسلا وشيئا من السمك لم يصدقوا أنه لم يمت وظنوه شبحا لأنهم كانوا قد رتبوا أمورهم على أساس أنه مات .(المترجم) .

(٢) كان الرومان يحكمون فلسطين فى عهد المسيح ، وكانوا يستوظفون بعض الرجال لتحصيل ضرائب المرور أو المكوس على السلع والبضائع أثناء مرورها فى تقاطع الطرقات . وكان متّى واحدا من أولئك الموظفين بالجمارك أثناء الحكم الرومانى فى فلسطين . (المترجم) .

التحدث باللغة الآرامية وباللغة اليونانية لغة حكام فلسطين الذين يعمل لحسابهم أيضا . ومن المعروف أيضا أن مرقس إنما كان مساعدا لبطرس وهو يعتبر أيضا شاهد عيان . أما «لوقا» فهو ذلك الطبيب العزيز الذى يتحدث عنه «بولس» بهذه الصفة . والمعلومات عنه بالغة الدقة . أما «يوحنا»[1] فهو الرسول القريب دائما من المسيح ، وهو «ابن زبدى» الذى كان صيادا يصطاد السمك من البحيرات الموجودة فى إقليم الجليل بفلسطين .

إن الدراسات الحديثة عن بداية ظهور المسيحية تظهرنا على أن هذه الطريقة فى تقديم الأمور لا تتفق فى معظم الأحوال مع الحقيقة . وسنرى فيما بعد الحقائق المتعلقة بأولئك الأشخاص الذين تنسب إليهم كتابة نصوص الأناجيل . أما فيما يتعلق بشأن عشرات الأعوام التى أعقبت نهاية شأن المسيح مع قومه فمن الضرورى بالنسبة للقارئ الكريم أن يعرف أن الأحداث لم تقع مطلقا كما يقال، وأن وصول بطرس إلى روما لم يكن هو الحدث الذى أفضى إلى تأسيس «الكنيسة» العكس من ذلك صحيح . وبين اللحظة التى انتهى فيها شأن المسيح مع قومه وحتى منتصف القرن الثانى، أى طوال حوالى مائة وخمسين عاما كانت هنالك فى حقيقة الأمر معركة مستعرة بين اتجاهين رئيسيين أحدهما يمكن لنا أن نسميه بالمسيحية البولسية Pauline Christianity نسبة إلى القديس بولس Saint paul والثانى هو اليهودية المسيحية Judeo-Christianity ولقد كان انتصار المسيحية البولسية على اليهودية المسيحية انتصارا بطيئا ، ولكن المسيحية البولسية هى التى انتصرت بالفعل ، وبشكل تدريجى شديد التدرج .

ويوجد عدد كبير من الدراسات فى هذا الصدد صدرت فى العقود الأخيرة من القرن العشرين ، وقد تأسست هذه الدراسات على مكتشفات عصرنا وهى التى سمحت بظهور هذه المعلومات الحديثة التى ترتبط بكثير من الدارسين مثل الكاردينال دانييلو Danielou والمقال الذى نشره فى شهر ديسمبر عام ١٩٦٧ بمجلة «الدراسات Etudes» إنما هو «رؤية جديدة للأصول المسيحية ولليهودية المسيحية» إنه فى مقاله هذا يضع خطوط تاريخ المسيحية ، ويحدد لنا بدء ظهور الأناجيل، وذلك فى سياق يختلف تماما عن سياق المعلومات التى زودت بها الكنيسة عامة الجمهور طوال قرون متعاقبة من الزمان . وسيجد القارئ الكريم فيما يلى تلخيصا للنقاط الجوهرية بهذا المقال مع مقتطفات من نصوصه اقتبسناها منه حرفيا .

يقول الكاردينال دانييلو فى مقاله المشار إليه : كونت «مجموعة الحواريين الصغيرة بعد المسيح» طائفة «يهودية» تمارس ديانة المعبد وتحافظ على تعاليمها . وعندما كان ينضم إليهم أشخاص جدد من الوثنيين ، فلقد كانوا يقترحون عليهم «نظاما خاصا» إن جاز هذا التعبير إذ كان المجمع

(١) هكذا يروجون أوصاف من يطلقون عليهم شهود العيان . وينسبون الإنجيل الرابع ، إنجيل يوحنا إلى يوحنا بن زبدى . هذا الإنجيل الرابع مكتوب فى أصوله باللغة اليونانية البليغة التى لم يكن يعرفها بالقطع يوحنا بن زبدى ، صياد السمك ، الذى تصفه «أعمال الرسل» صراحة بالعامية والنقص فى المعرفة . كيف امتلك ناصية اللغة اليونانية ، لغة الحكام فى فلسطين وهو صياد سمك أمى لايعرف إ لا اللغة الآرامية مثلا ؟ أم أن يوحنا بن زبدى كان قد تعلم اللغة اليونانية كلغة أجنبية ؟ (المترجم) .

المسكونى المنعقد فى عام ٤٩ بعد الميلاد يحل ويجيز «للأتباع الجدد» عدم التقيد التام بأحكام الطهارة[١] وتطبيق كل الشرائع اليهودية بشأنها . ولقد رفض كثير من اليهود المسيحيين هذا التنازل . وانفصلت هذه المجموعة تماما عن «بولس» ولقد حدث أن اصطدم بولس واليهود المسيحيون بسبب أولئك الذين دخلوا حديثا فى المسيحية (أحداث إنطاكية عام ٤٩ بعد الميلاد) «فالطهارة[٢] ومراعاة الراحة يوم السبت وطقوس ديانة المعبد كانت أمورا بالية لا يلزم التمسك بها من وجهة نظر بولس فى مقابل التضحية بالمؤمنين الجدد الذين يتحولون من الوثنية إلى المسيحية بفضل جهود[٣] بولس .

يجب – من وجهة نظر بولس – أن يتحرر اليهود أنفسهم من هذه الأمور البالية دينيا وسياسيا حتى تفتح المسيحية ذراعيها لغير اليهود .

أما اليهود المسيحيون المتمسكون بالشرائع وتقاليد العبادات اليهودية فقد ظلوا «يهودا مخلصين» واعتبروا أن «بولس» خائن Traitor وتطلق عليه الوثائق اليهودية المسيحية وصف «العدو enemy" وتتهمه بممارسة تكتيكات ذات وجهين[٤] Tactical double- dealing وحتى العام السبعين بعد الميلاد كانت اليهودية – المسيحية تمثل غالبية أتباع الكنيسة "Until 70 A.D., Jodeo - Christian- ity seprsesented the majority of the churich" .

لقد كان بولس منعزلا أو بالأحرى معزولا منبوذا بين اليهود فى ذلك الوقت . "Paul re- mained an isolated case" وكان على رأس جماعة اليهود آنذاك شخص يدعى يعقوب وكانت له صلة قرابة بالمسيح وكان يناصره فى البداية بطرس ويوحنا بن زبدى ظل كعمود الخيمة بالنسبة للديانة اليهودية – المسيحية فى مواجهة الرياح العاصفة أمام المسيحية البولسية ، وظل الأفراد الذين يمتون بصلة نسب إلى المسيح يحتلون مكانة كبيرة فى هذه الكنيسة اليهودية المسيحية فى أورشليم. وقد خلف سيميون Simeon يعقوب فى رئاسة هذه الكنيسة ويقال : إنه ابن كاليوبا Cleopas الذى يقال : إنه ابن عم للمسيح[٥] .

---

(١) هذا التصوير فيه تبسيط مخل وغير دقيق إذ كان اليهود المسيحيون يتمسكون بضرورة الختان مثلا بالنسبة لمن يؤمن بمعتقدهم ، وكان القديس بولس وحده هو الذى يجيز عدم الختان ، وتشهد نصوص «أعمال الرسل» بالصراع العنيف بينهم وبين القديس بولس بهذا الصدد وكيف حاولوا الفتك به لولا أن دخل تحت حماية الحاكم الرومانى لفلسطين . (المترجم) .

(٢) يقصد بالطهارة هنا ضرورة الختان circumcision (المترجم) .

(٣) كان شغل بولس الشاغل هو إدخال الرومان الوثنيين إلى الديانة المسيحية . وكان الرومان يمثلون القوة العسكرية الفاعلة الأولى فى العالم . وكانت سيوف ورماح الرومان موجهة إلى رقاب المسيحيين بتحريض من اليهود غير المسيحيين . وكان شغل بولس الشاغل هو إدخال الرومان الوثنيين إلى المسيحية لتتحول سيوف ورماح الرومان من رقاب المسيحيين إلى رقاب اليهود وهو ما حدث بالفعل . (المترجم) .

(٤) كان بولس يقول لليهود : إنه يهودى : فريسى ويكتب الرسائل إلى الناس وإلى الدعاة الوثنيين أنه يجيز لهم عدم التمسك بالشرائع اليهودية ، وهو الأمر الذى أفضى إلى ثورة اليهود عليه ومحاولتهم الفتك به . (المترجم) .

(٥) هذا كلام يقال وقد أورده بالنص البروفيسور دانييلو فى مقاله المشار إليه كما أورده المؤلف بنفسه . هناك شك فيما إذا كان للمسيح أبناء عم اللهم إلا إذا صح إرجاع نسب المسيح إلى يوسف النجار ، وهو بالقطع غير صحيح ، ولكن ما أكثر أدعياء القرابة للمسيح والتلمذة عن المسيح بعد انتهاء شأن المسيح مع قومه . (المترجم) .

ويذكر الكاردينال دانييلو اقتباسات من الكتابات المنسوبة إلى اليهودية المسيحية التى تقدم أفكار هذه الجماعة اليهودية المسيحية عن المسيح وحواريه كما تتمثل فى إنجيل العبريين The Gospel of the Heberws الذى يعزى إلى اليهود المسيحيين فى مصر كما يورد نصوصا من مأثورات كليمنت المعروفة باسم الفضائل الكليمنتية Reconnaissances Clementines وكذلك يورد نصوصا من «نهاية العالم الثانية Seconde Apocalypse de jacques وكذلك يورد نصوصا من إنجيل[1] توما . Thomas ويقول الكاردينال دانييلو فى تبريره للنصوص التى اقتبسها من هذه الأناجيل :«إن من الضرورى للإنسان أن يرجع إلى أقدم الكتابات المسيحية ليدرس حقائق هذه الحقب من تاريخ اليهودية المسيحية» وهو يقول أيضا : «لم تكن اليهودية – المسيحية سائدة فقط فى أورشليم وفلسطين طيلة القرن الأول من تاريخ المسيحية بل كانت منتشرة فى بلاد أخرى قبل غلبة المسيحية البولسية ، وهذا هو السبب الذى يوضح لنا ما تشير إليه كتابات بولس من وجود صراع ما فى الآراء بين المسيحيين ، إنهم هم نفس الأعداء الذين كان يقابلهم ويجادلهم حيثما ذهب فى غلاطية وكورنثوس وكولوسيا وروما وأنطاكية» .

كان الساحل السورى الفلسطينى من غزة إلى أنطاكية يهوديا – مسيحيا كما تشهد بذلك أعمال الرسل والكتابات الكليمنتية . كما أن وجود اليهود المسيحيين فى آسيا الصغرى أيضا تشهد بوجوده رسائل بولس إلى أهل غلاطية وإلى الكولوسيين . أما كتابات بانياس فهى تعطينا معلومات عن اليهودية المسيحية فى إقليم فريجة . وفيما يتعلق بشأن بلاد اليونان نجد أن رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس من اليهود المسيحيين وعلى رأسهم بابولوس تشهد بوجود اليهود المسيحيين فى بلاد اليونان ذاتها . ولقد كانت روما تعتبر مركزا مهما لوجودهم حسب ما ورد فى رسالة كليمنت وراعى هرمياس . ويرى سويتون Sue'tone وتاسيت Tacite أن المسيحيين كان يشكلون طائفة مهمة بين اليهود فى مدينة روما . ويعتقد الكاردينال دانييلو أن أول تبشير بالأناجيل فى قارة إفريقيا إنما كان يهوديا – مسيحيا . وإلى اليهودية – المسيحية يعزى أيضا إنجيل العبريين وكتابات كليمنت السكندرى .

إن معرفة هذه الحقائق أمر رئيسى أساسى حتى نفهم فى أى جو من الصراع بين الجماعات قام بعض الأفراد بتحرير نصوص الأناجيل فى القرون الأولى من التاريخ المسيحى . إن بداية ظهور نصوص الأناجيل التى نطالعها الآن قد ظهر إلى حيز الوجود بدءا من عام ٧٠ بعد الميلاد بعد تعديلات فى هذه النصوص والتمسك ببعضها واستبعاد بعضها الآخر ، وهذه الفترة من التاريخ هى

(١) بعد انتصار وشيوع وذيوع المسيحية وفقا لآراء بولس تعتبر الأناجيل الأخرى غير الأناجيل الأربعة المعروفة من الأناجيل المزيفة(أبوكريفا) ولا يعتد فى عالم المسيحية بأى نصوص مستمدة من أناجيل الأبوكريفا ، ومن العجيب أن يستدل باحث مسيحى بمثل هذه النصوص . (المترجم) .

الفترة التى كانت الجماعتان المتنافستان فى أوج الصراع وكانت الغلبة فى بداية الصراع فى جانب اليهود المسيحيين . ولكن الموقف انقلب تماما بسبب حرب السبعين[١] وسقوط القدس . ويشرح الكاردينال دانييلو أسباب هذا الانهيار الذى تعرض له أنصار الاتجاه اليهودى – المسيحى فى بداية تاريخ المسيحية كما يلى :

«لما كان اليهود منبوذين مقهورين تحت حكم الرومان فى فلسطين فقد نحا المسيحيون من أتباع بولس إلى الانفصال الفكرى العقائدى عنهم ، وبعد صراع دام حقبا قليلة ساد المسيحيون الهلنستيون.[٢] لقد حاز بولس النصر بعد وفاته . وبانتصار مذهب بولس انفصلت المسيحية دينيا واجتماعيا وسياسيا عن اليهودية ليتكون منها ما يمكن أن يطلق عليه تسمية «الشعب الثالث "The Third People وبالرغم من ذلك وحتى نهاية التمرد اليهودى عام ١٤٠ بعد الميلاد كانت اليهودية – المسيحية سائدة من وجهة النظر الثقافية .

وفى الفترة الممتدة من عام ٧٠ بعد الميلاد حتى عام ١١٠ بعد الميلاد تمت صياغة أناجيل مرقس ومَتَّى ولوقا ويوحنا . ولا تشكل هذه الأناجيل الوثائق الأولى فى المسيحية . إن رسائل القديس بولس تسبق زمنيا ظهور هذه الأناجيل ، وفى رأى أ . كولمان O . Culmann فإن بولس قد كتب رسالته إلى أهل سالونيكى فى عام ٥٠ بعد الميلاد . ولكن مما لا ريب فيه أن بولس كان قد مات عندما انتهى مرقس من كتابة الإنجيل المنسوب إليه .

وإذ كان بولس يعتبر أكثر الشخصيات مثارا للجدل فى تاريخ المسيحية ،وإذا كان بولس يعتبر خائنا من وجهة نظر أفراد أسرة المسيح وحوارييه الذين بقوا متمسكين بالتقاليد اليهودية وبالشرائع اليهودية فى أورشليم فمرجع ذلك إلى أن بولس قد صاغ معتقدات المسيحية على نحو معارض ومخالف لآراء أولئك الذين كانوا قد عاشوا حول المسيح وعاهدوا أنفسهم على نشر تعاليمه ، ولما كان بولس لم يكن قد صحب المسيح أو تعرف عليه إبان حياة المسيح قبل انتهاء شأنه مع قومه ، نجد أن بولس قد برر شرعية رسالته بأن المسيح بعد قيامته قد ظهر له على طريق دمشق . ولا مفر من أن يتساءل المرء : ماذا عساها المسيحية أن تكون لولا ظهور[٣] بولس فى تاريخها .

---

(١) هى الحرب التى دمر فيها طيطس القدس وهدم الهيكل العام ٧٠ بعد الميلاد مما أفضى إلى قهر اليهود المسيحيين المتمسكين بالشريعة والطقوس اليهودية المصرين على ضرورة تمسك المسيحيين بها أيضا باعتبار أن المسيح لم ينادِ بنبذها بل كان يطالب بضرورة الالتزام بها . (المترجم) .

(٢) الهلينستية هى جماع الثقافات والفلسفات اليونانية خصوصا بعد المزج بينها وبين الأفكار الدينية المستمدة من الشرق القديم وبخاصة الديانة اليهودية كما تبدت فى مدرسة الإسكندرية حيث كان يختلط اليونان واليهود وظهرت محاولات التوفيق بين الديانة اليهودية والأفكار الفلسفية اليونانية على يد «فيلو» وغيره من المفكرين . وعندما رأى بولس أن العنصر الرومانى المتشبع بالأفكار اليونانية هو الذى يسود العالم عسكريا آنذاك ربط به عجلة المسيحية . (المترجم).

(٣) بذل القديس بولس جهودا كبيرة لجذب الرومان الوثنيين نحو المسيحية . وإذا كان الرومان ينفرون من الختان فقد أباح لهم بولس عدم الختان لأن الختان هو ختان الروح ، وإذا كانوا يحبون شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فأباح لهم بولس ذلك باعتبار أن المهم ما يخرج من الفم وليس ما يدخل الفم على حد قول بولس . ولكن التسهيلات التى منحها بولس للرومان لإدخالهم فى المسيحية لم ترض اليهود المسيحيين فثاروا عليه كما أشار المؤلف إلى ذلك وكما سبق أن أشرنا .(المترجم).

إن الإنسان لا يستطيع أبدا أن يحيط علما بكل أنواع الافتراضات الممكنة فى هذا الصدد وطالما نجد أنفسنا بدراسة الأناجيل نجد أنه من المؤكد أنه لولا ذلك الصراع بين الجماعات المسيحية فى الطور الأول من نشأتها لما أصبح فى حوزتنا نصوص الأناجيل الموجودة لدينا الآن ، لقد ظهرت هذه الأناجيل فى زمن ذلك الصراع الرهيب بين أصحاب هذين المذهبين : مذهب اليهود المسيحيين ومذهب بولس .

إن هذه النصوص وليدة ذلك الصراع Combat Writings كما يسميها الأب كانينجسر ، قد انبثقت من بين خليط النصوص التى كُتبتْ عن المسيح . ولقد تكرست نصوص هذه الأناجيل بينما كان انتصار مذهب بولس يزداد انتصارا ورسوخا بشكلٍ حاسم ، فتكونت مجموعة النصوص المعضدة لذلك الانتصار باعتبار أنها النصوص المعتمدة من الأناجيل official texts وتكوَّن وتَشَكَّل من هذه النصوص ما أطلق عليه علماء المسيحية قانون الإيمان المسيحى The Canon الذى أدان ودمغ بالخطأ والهرطقة أى وثائق أخرى مكتوبة عن حياة المسيح وهى تلك الوثائق المكتوبة التى لم تكن تتسق مع خط الكنيسة، كنيسة بولس .

لقد تلاشت جماعة اليهود المسيحيين الآن كجماعة ذات أثر أو نفوذ ، ولكن لا يزال المرء يسمع أناسا يتحدثون عنهم تحت مسمى خاص هو اصطلاح «المتشبثين باليهودية Judaistic ، وهذا هو الوصف الذى يصف به الكاردينال دانييلو اختفاءهم إذ يقول عنهم بالحرف الواحد :

«وبانقطاع اليهود – المسيحيين عن الكنيسة الكبرى –كنيسة مذهب بولس التى تحققت لها السيادة وتحررت تدريجيا من روابطها بالديانة اليهودية انصهروا فى بوتقة الغرب The West . ونستطيع أن نجد فى الشرق The East على كل حال آثارهم فى القرن الثالث ، وفى القرن الرابع بعد الميلاد على وجه الخصوص فى فلسطين وشبه الجزيرة العربية وحول نهر الأردن وفى سوريا وميزوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين أو العراق الآن) . ولقد انضم بعضهم إلى الكنيسة الكبرى محتفظين إلى حد ما بآثار ثقافتهم السامية Semitic Culture ولا يزال بعضهم موجودا فى كنائس الحبشة وكالدانيا» .